خواطر عربيّ غاضب

عن المذكّرات وكتابتها (٣)

أسعد أبو خليل*

لم أقرأْ مذكّراتٍ مثل **سبعون** لا بالعربيّة ولا بأيّة لغةٍ أخرى. إنّها مذكّراتٌ غايةٌ في الفرادة، لكاتبٍ غايةٍ في الفرادة أيضًا، ذي شخصيّةٍ معقّدةٍ لا يسْهُلُ تصنيفُها. أستاذةُ اللغة العربيّة في مدرسة الكوليج بروتستانت كانت تقول عن نعيْمة، حين تقارنه بجبران، إنه «وَلَدٌ شاطر وكَبِر.» في إشارتها هذه نوعٌ من الهجاء، إذ إنها تدلّل على جِدّ نعيْمة ومثابرته، لا على فذاذته أو عبقريّته مقارنةً بزميله.

❖❖

يَصْعب أن ينشأَ أحدٌ على حبّ اللغة العربية من دون أن يمرّ بمرحلة نعيْمة وجبران، وإنْ تجاوزهما لاحقًا حين يكتشف ضحالةَ الفكر في **نبيّ** جبران (الصحافة السعوديّة لا تزال تمتنع عن نشر اسم هذا الكتاب لأسبابٍ وهّابيّة) أو في **كتاب مرداد** لنعيْمة ـ والكتابُ الأخيرُ تقليدٌ لكتاب جبران، الذي هو بدوره تقليدٌ سطحيٌّ وضحلٌ (وبإنشائيّةٍ شاعريّةٍ مبسّطة وإنْ تكن جميلة لمن هُمْ في سنيّ الحداثة) لكتاب نيتشه الفذّ، **هكذا تكلّم زرادشت**.

محنةُ نعيْمة أنه عاصر جبران، مثلما أنّ محنة نايف حواتمة (مُوزِّع الدروع يمنةً ويسرةً في لبنان) هي أنه عاصر جورج حبش. نعيْمة يحاول أن يتجاوزَ جبران ويتناساه، في حين يطالبه القرّاءُ والنقّادُ بالحديث المتواصل عن جبران. والحال أنّ كتابَ نعيْمة عن جبران لم يُنْهِ الاهتمامَ بعلاقته به، بل زادها غموضًا والتباسًا بسبب ما لاقاه من انتقادات: فبعضُهم لامه لأنه لم يُظْهر جبران كيسوع، أيْ زاهدًا في الدنيا؛ وبعضُهم لامه لإسقاطه بعضًا من الحقائق. ولذا، فإنّ في **سبعون** الكثيرَ عن جبران: فقد عاد نعيْمة إليه وكتب عنه، محاولاً أن يمحوَ بعضَ آثار... العدوان في سيرته عنه.

❖❖

ما أشدَّ إحكامَ **سبعون**، وما أشدَّ انسكابَه ذهبًا! نعيْمة هنا صنع بالحروف والكلمات والمعاني ما يؤدّيه صانعُ الساعات بأدواتٍ صغيرةٍ ودقيقة. وقد جاء الكتابُ منظّمًا ومرتّبًا ومتسلسلاً، حتى ليصعبَ أن تقترحَ تغييرًا في تنظيمه أو ترتيبه، وإن اختلفتَ معه في كثير من المضامين.

وأسلوبُ نعيْمة مميّز: فهو لا يقلّد إلاّ نفسَه؛ بليغٌ من دون تكلُّفٍ ظاهر. يصف صخورَ الشخروب بدقة رسّامٍ أو نحّات، ثم يعود ليصفَ حياةَ القريةِ بما يشْبه معاداةَ المدنيّة، لكنْ بأسلوبٍ يُقرّبك إلى القرية حتى لتندفعَ إلى التفتيش عن أقربِ معْول!

❖❖

أما فكرُ نعيْمة فمحافظٌ على غير صعيد، وإنْ كان فوّاز طوقان (في كتابه **أسرار تأسيس الرابطة القلميّة**) أظهر ودرس النواحي الاشتراكيّةَ والتقدميّةَ في فكره. فنعيْمة، الذي درس في روسيا قبل أن يكملَ دراسته في الولايات المتحدة، عاش الحربَ الباردةَ من منظورٍ مغاير: فقد عاش في كلا البلديْن، وحافظ على روابط سوفياتيّةٍ إلى آخر سنواته. وكتابُه، **أبعد من موسكو وواشنطن**، يحتوي انطباعاتٍ نقديّةً عن الرأسماليّة، وإنْ حاول الكاتبُ أن يجاري وسطَه المحافظَ في لبنان وتحاشى إغضابَ بعضٍ من جمهوره، إذ لم يكن يريد أن يُحسبَ صراحةً على أيّ معسكر. لكنّ كتاباته بعيْد الحرب العالميّة الأولى كانت مباشرةً في نقدها للعجرفة الاستعماريّة الغربيّة التي شهدها في نيويورك. وقد كتب قصيدةً قاسيةً في غطرسة الغرب الأميركيّ وأدرجها في **سبعون**، وإنْ لم يدرجْها (لسببٍ من الأسباب) في كتابه الشعري، **همسُ الجفون**.

وفكرُ نعيْمة متأثّر تأثّرًا شديدًا بالزهد المسيحيّ. أذْكر، عندما قابلتُه مرتيْن وأنا في الثانية عشرة، أنه كان يكْثر الحديثَ عن «التغلّب على الشهوات»... حتى مع ابن الثانية عشرة الذي كان قد اكتشف الشهواتِ لتوّه! والصراع بين نعيْمة والشهوات تَصْلح لأن تكون عنوانًا لمذكّراته، **سبعون**، خصوصًا في سنواته الأولى. وفي فكر الزهد وجد نعيْمة نفسَه متفوّقًا على جبران وعلى أقرانه الآخرين. لكنّ مساءلة نعيْمة في هذا الأمر واجبة، إذ ماذا كَسبَ في «تغلّبه» على الشهوات يا ترى؟ صحيح أنه كان ينعزل في صومعته في الشخروب، ويتمشّى في الطبيعة، ويتأمّل الحياة القرويّة بإعجاب؛ إلاّ أنّ قناعته بأنّ اختيارَه الشخصيّ يرتقي به إلى مرتبةٍ أعلى أخلاقيًا من غيره من «الجُهّال» قولٌ يحتمل المناقشة على أقلّ تقدير، لما

* ـ أستاذ العلوم السياسيّة في جامعة كاليفورنيا ـ ستانسلوس.

يحتويه من مديح ذاتيّ ومن نبذٍ للّذّات... اللذيذة! صحيحٌ أنّ الكثير ممّا جاء في سيرته عن جبران، وفي **سبعون** أيضًا، يدلُّ على قدرة نعيْمة (وفشلِ الآخرين) في التغلّب على الشهوات، ولكنْ ماذا يضير لو تغلّبتْ (أوَنتحدّثُ هنا عن مصارعةٍ حرّة؟!) الشهواتُ على الإنسان؟ وماذا لو رضخ لها؟

وفي السياسة تقرأ **سبعون** فتتذمّر لأنّ القضيّة الفلسطينيّة لم تهزّ نعيْمة كما هزّت معظمَ الكتّاب، إنْ لم يكن كلّهم، في تلك الحقبة. فقد كان منصرفًا إلى أمورٍ مجرّدة. لكنّ الأمور المجرّدة في السياسة أو الكهنوت ليست بعدًا عن السياسة بل غرقٌ فيها من وراء حجابٍ مراوغ. ذلك أنّ الكلام عن المحبّة من دون التصدّي للقتل والعنف والاحتلال والصهيونيّة إنما هو موقفٌ سياسيٌّ في الصميم. ومثلُ هذا الكلام يصْدر أحيانًا عن بطريرك الموارنة عند حديثه عن معاناة الشعب الفلسطينيّ: فهو يتحدّث عنها وكأنها مشكلةٌ لا هويّةَ لفاعلها، ويتجنّب مؤخّرًا الإشارةَ إلى إسرائيل أو الاسرائيليّين (لكنّ حواتمة في زيارته الأخيرة إلى لبنان أهداه، كما أهدى نبيه برّي وآخرين، درعَ فلسطين!).

ثم إنّ تمجيدَ حياة القرية والفلاّحين (الذين شبّههم ماركس، في كتابه **الثامن عشر من برومير**، بكيسٍ من البطاطا) من دون النظر النقديّ إلى طبيعة العلاقات الاجتماعيّة والتراتبيّة القاسية، على أساس الجنس والطبقةِ والجاهِ والسلطةِ والنفوذ، إنما هو تكريسٌ لنمطٍ محافظٍ ورجعيّ من العيش. وإذا قارنّا بين نظرة جبران الى حياة القرية (في **الأرواح المتمرّدة** مثلاً) ونظرةِ نعيْمة، تبيّن لنا أنّ جبران كان أكثرَ نقديّةً وقسوة.

❖❖

يلاحظ القارئُ أنّ نعيْمة كان يحلم (ككثيرين غيره من نتاج ثقافة البلد المريض لبنان) بـ «العالميّة.» وقد حاول أن يترجمَ بعضَ كتبه إلى الإنكليزيّة (مثل **لقاء وكتاب مرداد**)، لعلّ وعسى، لكنه لم يُوفّقْ أبدًا. أسلوبُه في الإنكليزيّة جاء قاسيًا كمن يترجم قاموسيّاً من دون سبر غور اللغة الهدف، خلافًا لجبران: فهذا الأخير، على الرغم من انتقاداتٍ أصابتْه لناحية عدم تمكّنه الفقهيّ من الإنكليزيّة، كان يغطّي بشاعريّته المُميّزة على هنّات اللغة. غير أنّ جبران شاعر، لا كاتبٌ أو مفكّرٌ أو ناثر. وأما نعيْمة فكان كاتبًا وناقدًا، وشعرُه لم يرتقِ إلى مرتبة نثره الرفيع، وإنْ كان بعضُه جميلاً (مثل قصيدة «أخي»).

❖❖

يحتاج **سبعون** الى إعادة تقدير. نتساءل إنْ كان الجيلُ الجديدُ القابعُ أمام شاشة الكومبيوتر يستطيع أن يعطي هذا الكتابَ القيّمَ حقّه. **سبعون** في مجلّداته الثلاثة يعود إلى حقبة القراءة المنتظمة، عندما كانت أناةُ القراءة تتعدّى الصفحةَ أو الصفحتيْن. لكنّ الذي فاته التمتّعُ بهذا الكتاب فاته عَلَمٌ من الأدب العربيّ يتخطّى في قيمته ومعلوماته حدودَ قرنٍ واحد.

كاليفورنيا

المسافة قصيرة جداً بين قصّة بسمة الخطيب والقصيدة. فحسّها المرهف، وكتابتها التي تبدو كما لو كانت مقطوعات إيقاعيّةً بطريقتها الفريدة، يُدخلانني إلى عالم الشعر، ويضعانني في حالةٍ من الاكتفاء الذاتيّ في عمليّة التلقّي.

جابر عصفور

لبسمة الخطيب مقدرةٌ فنيّةٌ على حَبْكِ نصٍّ قصيرٍ لعالمٍ واسع، من دون أن يكون ذلك على حساب ثراء عالم القصة وتماسكه.

يمنى العيد